قراءة في مخطوط (شرح بعض من كلام سيدي علي عزّوز)

ـ قاسم بن محمّد اسّاسي التّميمي البوني ـ

Read in manuscript (explanation of some of the words of Sidi Ali Azzouz) Qasim bin Mohammed Al Sassi Al Tamimi Al PUNI.

أ. أحمد مزيان♥

إشراف: أ. د. لطيفة فريجين (حجار)

تاريخ الاستلام: 23-08-2020 تاريخ القبــول: 28-08-2020

الملخّص: تعدّ فترة الإيالة العثمانيّة للغرب الإسلامي من بين أشد الفترات التّباسا وأكثرها ضبابيّة على السّاحة الثّقافيّة ـ خاصّة إن حُقبت الفترات الأدبيّة سياسيا ـ بأخذها شطرا من عهد الانحدار، مقدّرا عليها غير مسؤولة عنه من جهة، ولتوالي الاستعمار بعدها على أراضين كانت تابعة لها من جهة أخرى، ولولا ضعفٌ أصاب أساسَها ما كان لأطماع الحملات الصّليبيّة أن تؤتي أكلها فيما أزمعت عليه من أمرها. ليأتي هذا المخطوط كأحد الأنوار الطّالعة منيرا ما كان عليه الوضع آنذاك، من العلم والمبادلات والرّسائل التي استمرت على خطى من كان يقيم للعلم وشيجةً بين أهله، ماحيا الحدود الجغرافيّة والعوائق المذهبيّة التي كانت تحول في كثير من الأحيان من التّماس بين شرائح الطّبقة المثقفة للمجتمع الإسلاميّ العربيّ.

كلمات مفتاحيّة: الإيالة العثمانيّة، تحقيق المخطوط، قاسم بن محمّد البوني الولي سيدي علي عزوز، التّصوف المغربي.

Abstract: The period of the Ottoman Empire in the western Islamic world isconsidered as the most doubtful and unclear era in the cultural sphere. Especially if we link literature with the political situation prevailing at the time which was one of the reasons for its downfall. Besides, the none-stop colonization

♥ جامعة الجزائر 02 . أبو القاسم سعد الله . الجزائر، البريد الإلكتروني: ahmmez91@gmail.com (المؤلّف المرسل).

waves also had it's impact on literature. The weakness that targeted it's essence gave the crusade a chance for more domination of the area. This manuscript was a powerful source that shed light about the situation of the time where knowledge, intellectual exchanges and letters were sent and received between scholars. The latter helped in illuminating the geographical bordersand obstacles between doctrines which caused before many problems between the members of educated class in the Arab Islamic community.

Keywords: The Ottoman Empire, manuscript, kassem ben Mohamed, sidi ali azzouz, mysticism of the Maghreb.

مقدّمة: الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على النّبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدّين، أمّا بعد: لقد كان من سنن الله تعالى على عباده أنّ من اتقاه علمّه وهداه، قال الله في كتابه العزيز:﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ البقرة: 282، ومن تمام تقوى الله تعالى معرفة ما لأهل العلم على مريديهم من حق مطلوب، وشكرٍ لهم فيه مرغوب، ويزيد الأمر وجوبا إذا كان العالمُ بلَديَّ الرّجل المتحدثِ بالنّعمة. وهروبا من سوء نكاية شيخ المعرة أبي العلاء المعري الذي كابد مرارة هضم حقوق كان ينتظر أن تسدى إليه من غيره، إذ رأى من نفسه أحقيّة بها حيث كان ينبغي أن تأتي إليه الإشادات وهي راغمة، فكافح ولم يصب من ذلك مراده، وراح يصعّد من إزراء أهل العالم بعالمهم حيث يقول:

أُولُو الفَضْلِ فِي أَوْطانِهِمْ غُرَبَاءُ * تَشُــذُّ وَتَنْــأَى عَنْهُـمُ القُرَباءُ

إِذَا نَزَلَ المقْـدَارُ لَــمْ يَكُ لِلْفَطا * نُهُــوضٌ ولا لِلْمُخَدّرَاتِ إِبَاءُ[1]

يجيء هذا المقال لتحقيق غايتين اثنتين، أمّا الأولى فتتمثل في الولوج إلى عالم المخطوط والنّظر في دهاليز كواغده وفك حروف خطوطه، وما يتبع هذه الخطوة الأولى من توجيه الهمة إلى إخراج ما تزخر به الجزائر المحروسة من كمّ هائل من تراث لا يزال رهين محبسه مفرقا مشتتا ينبئ عن صدق قوم عاشوا على تراب هذا الوطن الحبيب كخطوة تاليّة، لئلا يُزاد الغريب ضعة ولا الفقيد غربةً لاسيما والأهل أحياء يرزقون وهم ناظرون إليه ولكن لا يبصرون. وسيعلم قارئ كتاب (تاريخ الجزائر الثّقافي) لأبي القاسم سعد الله مدى صدق هذه الدّعوى، وعلى ذكر هذا الأخير فقد

جاء سفر أبي القاسم ليغطي فترة (الإيالة العثمانيّة) التي تلونت فيها صورة الثّقافة في الغرب الإسلامي الكبير الهجري بما تلون به الفكر العربي عموما من ركود واجترار تبعا للحالة السّياسيّة التي عاشتها المنطقة ككل، ممّا حدا به إلى محاولة إعادة ترتيب أوراق أمّة مزّقتها الانقسامات الحدوديّة تحت طائل النّزعات العرقيّة تارة أو تحت رزح الخلفيات الاعتقاديّة تارة أخرى. فرسم ـ رحمه الله ـ صورة واضحة المعالم عن الجو الثّقافي في الجزائر إبان العهد العثماني، بعدّ الأعلام والفنون والعلوم المنتشرة في إطار ما سمحت له يده أن تمسه من تراث مطبوع أو مخطوط، فكان بحقّ عمله الفردي يقدر بعمل مؤسّسة قائمة بذاتها. ولم يغب مفعول المقولة المشتهرة المتداولة على السّنة النّاس "إذا كانت بلاد المشرق هي بلاد الرّسل والأنبياء، فإنّ بلاد المغرب هي أرض الصّالحين والأولياء" منذ أن دخل التّصوف إلى الغرب الإسلامي الكبير، مرورا بالعهد العثماني وصولا إلى زماننا هذا، فقد كان حضورها ممثلا على الواقع بالمشاهد والمزارات تشييدا لأبنيتها كلما اتجهنا نحو الغرب وزيارةً لأهلها كممارسة طقوسيّة متجذرة وتجلٍّ لروح الدّين في نفوس بربر الأطلس[2]. إنّ من أبرز سمات العهد العثماني التي رسمت طابع الدّولة الاجتماعي وحتى السّياسي: حركة التّصوف والزّوايا الطّرقيّة، فلقد كان التّرك في تكوينهم الدّيني والنّفسي، والحربي من أتباع الطّرق الصّوفيّة، وانتشرت على عهدهم وتفرعت من نقشبنديّة ومولويّة وغيرهما، ولم يكن لهم دافع للبروز والظّهور على البسيطة إلا الجهاد وحماسة الدّين وحماية حرم المسلمين، كما أنّ دعوتهم وجدت بطانة دينيّة شدت من أزر العصبيّة النّسبيّة لتزيدها قوة حتى تمكنّ عندهم الأمر واستبدوا بالحكم والخلافة[3]. وقد عرفت الصّوفيّة أزهى مراحل عطائها من تأليف ونشاط ودعوة تحت عين العثمانيين، فتصاف الود بين الرّعيّة والولاة وقرب العلماء من مركز السّلطة، وصاروا مستشارين فيما يجّد من النّوازل والخطط، مهدئين لنفوس الطّامعين، رادين صولة الجناة الخارجين، ولا يقدح هذا التّزلف في نيّة السّلطة في السّعي إلى تثبيت حكمها حيث تشير مراسلات كثيرة بين أعيان الصّوفيّة والباشاوات[4]، واعتناء بعضهم بالتّصوف انتسابا وممارسة[5] إلا أن التّقرب كان مقصودا إليه معلوما باختياره.

وأمّا الغاية الثّانيّة فهي: إبراز تأليف لعلم جزائري لا يُعلم له ـ فيما أعلم ـ تأليف خرج إلى النّور محققا إذا جل أعماله ضائعة لم تطلها يد السّلامة أو منسوبة لابنه ـ كما سأشير إلى هذا لاحقا في ترجمة صاحب المخطوط –وذلك إمّا لشهرة الابن، أو للخلط الواضح في نسبة العمل إلى صاحبه، كما حدث لهذا المخطوط المتحدث عنه.

وسأحاول في هذا المقال أن أسلط الضّوء على بعض النّقاط التّاليّة:

1 ـ التّعريف بصاحب المخطوط (قاسم بن محمّد اسّاسي التّميمي البوني) :

بِوَالدّ العِيدِ أَبِي المَكَارِمِ * العَالِمِ البَحْرِ الوَلِيِّ قَاسِمِ

بِفضْلِهِ شَهدَتِ الأَعْدَاءُ * وَذِكْـــرُهُ لِـدَائِنَـــا دَوَاءُ[6]

هكذا ابتدأ أحمد بن قاسم البوني حديثه عن أبيه قاسم (صاحب المخطوط) في مطلع درته، وقد خصّص له أكبر مساحة للحديث ـ زهاء 40 بيتا ـ حين تكلّم عن مشيخته وأفراد عائلته، ولم يطل في أحد كما أطال في ذكر والدّه لعظم تأثيره عليه وطول مجالسّته له وتشرفه بالانتساب إليه كونه حاز الأبوتين (العلميّة والنّسبيّة) بامتياز. وعند حديثنا عن عائلة البوني فإنّنا سنتكلم عن إحدى أشهر البيوتات العلميّة الجزائريّة التي عاشت إبان العهد العثماني بالشّرق الجزائري، وأمّا بخصوص أصل العائلة فالرّاجح فيه ما رجحه صاحبنا (القاسم بن محمّد اسّاسي) عن نفسه في شرحه لكلام سيدي علـي عـزوز بقولـه: "فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتّقصير قاسم بن محمّد اسّاسي التّميمي المسيتي البوني الدّار.."[7]، فهو تميمي عربي الأصل ولذا يردف أبناء العائلة بهذه النّسبة أنسابهم فيما ورد من مؤلّفاتهم خاصّة كتب ابنه أحمد الشّهاب، حيث قال في مقدّمة نظمه المعروف بالدّرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة :

يَقُولُ رَاجِي عَفْوَ رَبٍّ رَاحِمِ * عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَحْمَدُ بْنُ قاسِمِ

اِبْنُ محمّد أَيِ المَسَيِّتِـــي * ثُـمَّ التّميمِـــيِّ بِلَا تَـــنْكِيتِ[8]

ومنه ما بعث به أحمد بن القاسم مهنئا محمّد بكداش بفتح وهران، وحافظا لعهد الود الذي كان بين الخلافة العثمانيّة والعائلة البونيّة آنذاك، هذا على غرار الرّسائل التي تحدثنا عنها سابقا، فيقول:

أَحْمَدُ نَجْلُ قَاسِمِ * بُونِـــــيٌّ ذُو مَـــآثِمِ

إِلَــى تَمِيمٍ يَنْتَمِي * بَـابَ الإِلَــهِ يَحْتَمِي[9]

وأمّا نسبة (المسيتي) فهي راجعة إلى أحد الشّعراء المعاصرين لابن خلدون اسمه: أبو محمّد أحمد المستي[10]، على ما قاله حسن دردور في كتابه عن عنابة[11]، أو نسبة إلى منطقة أو قبيلة (متيسة)[12] على ما ذكره حفناوي بعلي، بيد أن المتفق عليه أنّ أصل العائلة من جهة الأم تعود إلى (عيسى الويشاوي) نسبة إلى قبيلة (ويشاوي) الكتاميّة التي استوطنت جبل "إيدّوغ" وهذا اللفظ أمازيغي لسلسة جبليّة بين ولايتي عنابة وسكيكدة وتعني لفظة (دُّوْغ) باللغة العربيّة (مَشَيت) من الفعل (مشى يمشي) ولعل نسبة (المسيتي) راجعة إلى هذا المعنى المترجم من اللغة الأمازيغيّة بعد أن أصابه بعض من التّحوير. ورغم شهرة قاسم بن محمّد واستفاضة نبله على لسان ابنه أحمد الشّهاب، فإنّه لا يعلم له تاريخ ميلاد وقد حزره حفناوي بعلي بعام 1010 هـ[13]، كما لم يرد في سواه[14] من المراجع المعتمدة كشخصيّة تستحق التّعريف بها، وقد ذكره عرضا الكتاني في فهرسه حين أورد عنه إجازة أبي الإرشاد الأجهوري المالكي له[15] وما سوى ذلك فيُكتفي في الغالب بالإشارة إليه بالأوصاف العامة كـ: الفقيه المالكي، والصّوفي على الطّريقة الشّاذليّة بناء على الأوضاع الثّقافيّة المحيطة بالعائلة آنذاك، أو توسيعا لمقولة ابنه أحمد الشّهاب في ثبته عنه: "كان الوالد ـ رضي الله تعالى عنه –غلب عليه التّصوف والفقه كأنّهما مزجا بلحمه ودمه"[16]. وللقاسم البوني ـ رحمه الله ـ مسيرة علميّة حافلة بدأها في جامع أبي مروان الشّريف ببلده، ثم شد عزم الرّحلة إلى المشرق حيث تلقى بالجامع الأزهر علوم المنقول والمعقول وأجيز فيها على يدي أساطين ذاك الزّمان وأقام مدة طويلة هناك ورجع بعدها إلى بلده معلما أبناء وطنه ممّا أتى به من الشّرق من العلم، وقد تخرج على يديه ثلة كبيرة من العلماء العاملين على رأسهم: ابنه أحمد الشّهاب وغيره ممّن ذكر هذا الأخير في درته، كنصر القبايلي المجذوب ومحمّد التّمتام وقاسم الميلي وأحمد النّيار[17]، كما شغل منصب المفتي سنة 1045 هـ في جامع بونة الكبير، وله تواليف كثيرة في الفقه والوعظ والتّفسير، قال ابنه عنه في الدّرة المصونة:

وَأَلَّفَ فِي الوَعْظِ وَالتَّفْسِيرِ * وَغَيْــرِ ذَلِكَ بِــلَا تَعْسِيــرِ[18]

وقد فصل الابن في ثبته بعض ما أجمل عن أبيه في نظمه فذكر أمّهات الكتب الفقهيّة المالكيّة كالرّسالة لابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل، وله نصيب من النّحو فشرح ألفيّة الإمام ابن مالك، وله أيضا بالتّفسير اعتناء كبير فقد أقرأ تفسير عبد الرّحمن الثّعالبي رحمه الله المسمى بالجواهر الحسان، وأمّا سائر العلوم الباقيات فهي متمثلة في الوعظ والرّقائق والسّيرة والتّصوف كـ: شرح الحكم العطائيّة لابن عباد، والشّفا للقاضي عياض، وأحزاب القطب الشّاذلي، ووظيفة العارف للشيخ أحمد زروق رحمه الله وغيرها من المقررات التّعليميّة التي كان يعلمها بالجامع الكبير[19].

والملاحظ أنّ كل تصانيف القاسم ضائعة أو في حكم المجهول، فلم يأت ذكر لها إلاّ في ثبت أحمد الشّهاب ولولا حفظ هذا الأخير لبرنامج والدّه لم يعلم له ذكر، وقد سبقت لي الإشارة إلى أنّ شهرة الابن قد أثرت سلبا على مؤلّفات الأب المخطوطة الباقيّة، وكمثال لهذا الأثر السّيء الذي تبع الأب قاسما ما عقب به أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثّقافي على بروكلمان الذي نسب مؤلّف (المنحة الإلهيّة في الآيات الإسرائيّة) للقاسم البوني فقال أبو القاسم: "ولعلّ هذا العمل من تأليف أحمد البوني"[20]. ورغم استطالة أبي القاسم سعد الله في بحثه عن المخطوطات الجزائريّة في العهد العثماني واعتنائه الواسع بها وبشكل خاص ما ألف في التّصوف، وكذا تعرضه لكذا مرة للعائلة البونيّة ودورها الثّقافي، فإنّه لم يزد على الإشارة السّابقة عند حديثه عن قاسم بن محمّد البوني، ممّا يفتح الباب واسعا في إعادة النّظر والتّأكد من نسبة المؤلفات لأحمد الشّهاب خاصّة المخطوطة المتاحة منها. وقد شملت هذه الموجة المخطوط الذي نكتب عنه لكونه نسب في النّسختين اللتين بالمكتبة الوطنيّة التّونسيّة إلى أحمد الشّهاب، وسأبين ذلك فيما يلي من الحديث.

2 ـ وصف المخطوط (شرح بعض من كلام سيدي علي عزوز): للمخطوط نسختان ـ فيما يسّر الله لي من الاطلاع عليه ـ بالمكتبة الوطنيّة التّونسيّة، وهذه مواصفاتهما من فهرس المكتبة الوطنيّة:

أ ـ النّسخة الأولى[21]: وهي النّسخة التي أملك صورة عنها، وهي تحت رقم 3090 عنوانها: (شرح بعض من كلام سيدي علي عزوز)، المؤلّف: أحمد بن قاسم البوني

النّاسخ: محمّد بن محمّد الزّوابي 1240 هـ، الخط: مغربي المقاس: 22.5 * 15.5، الأوراق: 54 السّطر: 21.

ب ـ النّسخة الثّانيّة[22]: وهي ضمن مجموع به ثماني رسائل والمخطوط المقصود هو الرّسالة الخامسة منه، والمجموع تحت رقم: 7866، وسعيت جاهدا للحصول على هذه النّسخة من خلال عدة مراسلات للمكتبة الوطنيّة التّونسيّة إلاّ أنّني لم أفلح في ذلك للأسف، وعنوانها حسب الفهرس الثّامن في قسمه الأوّل: (شرح البوني لكلام سيدي علي عزوز)، المؤلّف: أحمد بن قاسم البوني، تاريخ النّسخ: 1229هـ، الخط: مغربي، المقاس: 21.5*16، الأوراق: (92 ظ ـ139ظ) أي 47ورقة، السّطر: 25.

أوّلها: "الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.. لما سبق في علم الله تعالى من الائتلاف والاجتماع وحصل التّلاقي والانتفاع بالشّيخ الرّباني سراج الدّين أبي الحسن علي عرف عزوز الفاسي المنشأ". وآخرها: "هذا ما أمكن من شرح هذا الكلام وتلخيصه ويسر سبحانه في بيانه وتخليصه وذلك على قدر فهمي وذوقي وعلمي لا على ما هو له أهل من الكمال وشريف الخصال".

أ . التّعليق: بما أنّني لم أتمكن من الحصول على النّسخة الثّانيّة من المكتبة الوطنيّة التّونسيّة فإنّ تعليقي سيكون على التي أملك منهما، وفي ملاحظة أوليّة ينبغي أن أقول: إنّ النّسخة الثّانيّة قد تعد الأصل المُنتسَخ منه الذي نسخ منه محمّد بن محمّد الزّوابي وذلك لسببين:

ـ أوّلا: تقدم زمان النّسخة الثّانيّة بإحدى عشرة سنة عن زمان النّسخة الأولى.

ـ ثانيا: إشارة النّاسخ محمّد بن محمّد الزّوابي إلى أنّ نسخه كان عن أصل، كما ذكر ذلك في هامش اللوحة: 18/ب بقوله: "وهذا البياض في الأصل المنتسخ منه إلاّ أنّه أفسح من هذا".

ب . التّحقيق من نسبة الشّرح لمؤلفه قاسم بن محمّد اسّاسي البوني: اجتمع المعتنون بفهرس المكتبة الوطنيّة التّونسيّة على نسبة مخطوط (شرح بعض من كلام سيدي علي عزوز) لأحمد بن قاسم البوني في كلتاي النّسختين، رغم تأخّر فهرسة الجزء الثّامن إلى حدود سنة 1994م، إلاّ أنّ الخطأ الواقع في الفهرس الصّادر سنة

1978م لم يستدرك، وظهر لي بعد تصفح المخطوط وقراءته أنّه لقاسم بن محمّد اسّاسي البوني لا لأحمد الشّهاب وذلك بناء على المرجحات التّاليّة:

أ ـ جاء في اللوحة: 1/ ب بعد خطبة الحاجة والتّصليّة ما يلي: "..أمّا بعدُ: فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتّقصير قاسم بن محمّد ا ساسي التّميمي المسيتي البوني الدّار.."فقد ذكر اسمه قبل ما يريده من الشّروع في عمل مؤلَفه.

ب ـ ورد ذكر بعض أسماء لمشايخ لم يجالسّهم أحمد بن قاسم البوني، وإنّما حصلت ملاقاتهم لوالدّه لا له كالشّيخ أحمد القشاشي البوني[23] المتوفى سنة 1071 هـ، حيث إنّ سنّ أحمد الشّهاب إذ ذاك ثماني سنوات، فأنّى له السّفر في تلك السّن المبكرة إلى المدينة أو مكّة أو اليمن وهذه مرابع ترحال القشاشي المدفون بالقدس الشّريف، وكالشّيخ نور الدّين الأجهوري أبي الإرشاد[24] شيخ المالكيّة في زمانه المتوفى سنة 1066 هـ، ولم يدرك أحمد الشّهاب هذا العالم وإنّما يروي عنه من باب الإجازة العامّة، أمّا لقاء القاسم به واقع ومشيخته عليه حاصلة، وقد سبق ذكر إجازة الشّيخ الأجهوري له التي ذكرها الكتاني في فهرسه.

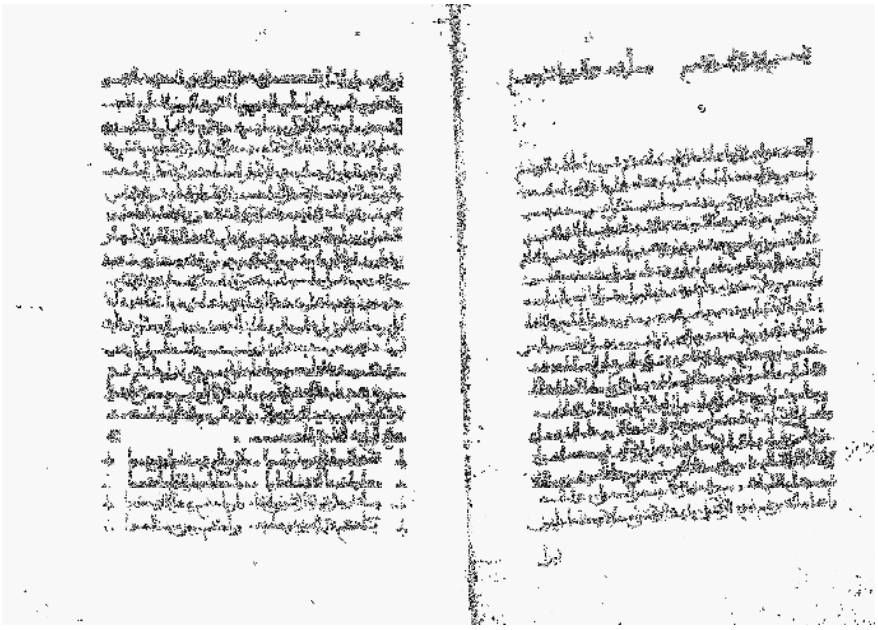

اللوحة الأولى من المخطوط

ج ـ جاء في اللوحة الأخيرة ما يفيد تاريخ نهاية تأليف هذا الشّرح وذلك عند قوله: "وكان الفراغ من جمعه وتحصيله وتمهيد سبيله قبل صلاة العصر من يوم الخميس أواخر شهر الله جمادى الأولى من سنة 1084 هـ"، وقد أشكل عليّ الرّقم (8) كونه قد كتب أوّلا على أنّه الرّقم (3) ثم ضرب فوقه بخط غليظ، فحزرت الرّقم بالعدد (8) والله أعلم. فإن قلنا أنّه الرّقم (3) فيكون ذلك قبل ميلاد أحمد الشّهاب بثلاثين سنة تقريبا فلا ينازع فيه إذن، وإن قلنا أنّه العدد (8) وهو الأنسب فيكون عمر أحمد الشّهاب إحدى وعشرين سنة ويكون التّأليف لأبيه على ما سيأتي من الكلام عن مضمون المخطوط كون قاسمِ بن محمّد البوني أرسل ابنه إلى تونس ليأتي بالولي سيدي علي عزوز إلى عنابة كما أشار إلى ذلك في سبب تأليفه لهذا الشّرح، وبالتّالي لو قلنا أنّه لأحمد الشّهاب فحتى ولداه وهما: محمّد وأحمد الزّروق لم يكونا مولودين بعدُ، فأي ابن سيرسله أحمد الشّهاب إلى تونس؟ فتبين من هذا أنّه هو المرسَل لا المرسِل.

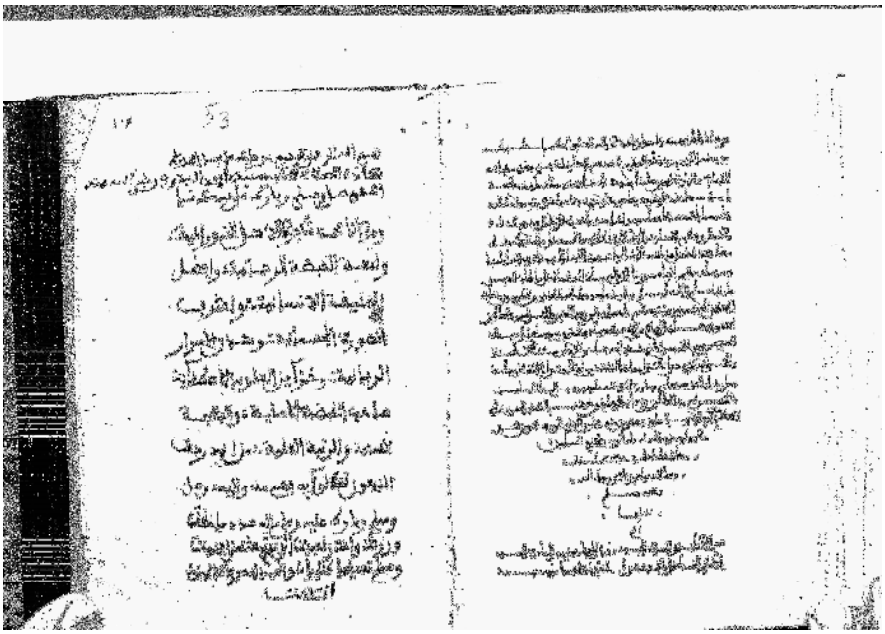

اللوحة الأخيرة من المخطوط

د ـ أورد أحمد الشّهاب في ثبته أثناء حديثه عن والدّه قاسم بقوله: "..غالب تواليفه ورسائله وقصائده بخط يدي وقد ألف ـ رضي الله تعالى عنه ـ كتابه في الوعظ

المسمى (النّور الوضاح الهادي إلى الفلاح) وهو في غاية الحسن وتقييدا على قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ النّور: 35، وآخر في الزّيارة وقد قرأنا كثيرا منه على علماء تونس فاستحسنوه.. له تقييد جليل على كلام لشيخ الوقت، الصّالح البركة شيخنا وبركتنا المحسن إلينا سيدي أبي الحسن علي عزوز الفاسي ثم الزّغواني.."[25] وهذا أوضح دليل على ما ذهبت إليه من كون نسبة هذا المخطوط للقاسم الأب لا أحمد الشّهاب الابن رغم وروده في النّسختين بفهرس المكتبة الوطنيّة التّونسيّة باسم أحمد، ولعل الخطأ حاصل جراء شهرة أحمد دون سواه من الأسرة البونيّة أو للسهو أو لنحو ذلك من العارضات.

3 ـ عرض محتوى المخطوط (شرح بعض من كلام سيدي علي عزوز):

أ ـ سبب التّأليف: يعود سبب تأليف الكتاب إلى دعوة قاسم بن محمّد البوني الولي العارف سيدي علي عزوز الفاسي الزّغواني[26] بالمجيء إلى بونة، بعد أن حصل للقاسم لقاء بالشّيخ بزغوان في إحدى سفرياته ولا يعلم بالتّحديد متى وقعت هذه الرّحلة، ولم أجد من أشار إليها ممن اعتنى بالمشيخات والأثبات، ثم إنّي وقفت على ما يفيد الواقعة دون ذكر لتاريخها، فقد روى الشّيخ حسين خوجة في ذيله لمّا تطرق إلى أخبار أبي الحسن علي عزوز قوله: "خرج الأستاذ العالم العامل سند العلماء والصّالحين سيدي أبو القاسم بن ساسي وهو مشهور من أكابر بلد بونة قاصدا لزيارة سيدي علي عزوز.."[27] الخ ما سرد من خبر زيارة قاسم البوني وما حدث فيها من كرامة له مع الولي علي عزوز وقد أشار البوني إلى هذه الزّيارة بقوله: ".. ولما سبق في علم الله من الائتلاف والاجتماع وحصل التّلاق والانتفاع بالشّيخ الرّباني والولي الرّوحاني.. سراج الدّين علي عرف عزوز الفاسي المنشأ القاطن الآن ببلد زغوان من قطر إفريقيّة حرس الله الجميع وقد وقعت بيننا وبينه محبة في الله ومودة من أجله سبحانه.. وذلك أيّام رحلتنا إلى زيارة الرّجال وطلبنا لمنحة منتهى الوصال.."[28].

ثم إنّ قاسما أرسل ابنه (ولعلّه أحمد الشّهاب) وجماعة من الإخوان والأصحاب والفقراء إلى زغوان من بلاد إفريقيّة ليأتي بالشّيخ أبي الحسن علي عزوز بعد أن تمت المواعدة بينهما على اللقاء ببلد العناب ولكن حال بين البوني وبغيته مرض الولي علي عزوز الذي حبس عن المجيء إلى الموعد المحدد، واعتذر إلى البوني.

قال قاسم البوني في ذلك : "..فلما أن قضينا من ذلك بعض الأوطار ورجعنا إلى الأوطان والدّيار حركتنا رياح الأشواق وتذكرنا مواطن التّلاق وعظيم الأنس بتلك الرّفاق فأرسلت ولدي مع بعض الفقراء بقصد أن يأتوا بالشّيخ وأصحابه مع بعض إخواننا المحبين في الله إلى محلنا لأنّه كانت سبقت المواعدة بيننا وبينهم بذلك فقدم الجميع فلمّا أن صاروا في أثناء الطّريق أصاب الشّيخ ألم شديد منعه الدّخول إلى وطننا والوصول إلى محلنا واعتذروا أيضا (باعتذار) خفيّة يعلمها رب البريّة فتأسفنا على ما فاتنا من ذلك و(رأينا أنّنا لم نصلح) لما هنالك.."[29]. ولم يكن الولي أبو الحسن ليزيد كسرا لخاطر مريده قاسم البوني فأرسل له مع ولده كلاما من إنشاءاته وبعضا من أقواله، طالبا منه أن يشرحها ويسهل ملغزها ويحل مشكلها، قال قاسم البوني: "ثم إنّ الشّيخ حفظه الله أرسل مع ولدنا المذكور كلاما من إنشاءاته وأنفاس وارداته يشير به إلى اختلاف أحوال الرّجال وتنوع وقائع الأنزال ويفهم منه أنّ تأخره عن القدوم إلينا هو من ذلك القبيل الذي ليس على فاعله من حرج ولا سبيل لأنّه ساكن تحت جريان أحكام الأقدار وليس له مع الله تدبير ولا اختيار فلا تدخل أفعاله تحت ميزان العقول والأنظار قال الله العظيم: ﴿**مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ التّوبة: 91، وقد طلب مني شرحه وقلدني إيضاحه وفتحه"[30].

ب ـ مضمون المخطوط: أمّا كلام سيدي علي عزوز فهو عبارة عن إشارات مقاميّة ولمحات سلوكيّة وشحطات فنائيّة ".. وقد أشار فيها إلى أحوال القوم ومقاماتهم واختلاف منازلهم ودرجاتهم"[31]، صاغها بأسلوب بين النّثر والشّعر شبيه بالذي كتبه النّفري في مخاطباته، وهذه بعض الإنشاءات المشروحة من كلام سيدي علي عزوز:

فِـي السّـرّ مَـــا يَغِيــبُ * وَفِي السّرّ مَا يَغْلبُ عَلَيْـه
وَفِـــي السّـرّ مَـا يَزِيـــنُ * وَفِي السّـرّ ما يَظْهَرُ عَلَيْه
وَفِي السّرّ ما يَسيحُ لِلْجِبَالِ * وَعُشْبُ الخَلاءِ يَأكُــل فِيه
وَفِـــي السّـرّ مـــا يـــظهـر * ومِـنْ كُلِّ البِلادِ تَأْتِي إِليـه
وَفِـــي السّـرّ مَنْ يَقْرَأُ العِلْم * والشّـــرحُ يَنْظُـــرُ فِيـه
وَفِي السّرّ مَا لا يَقْرَأ ولَا يعلم * وفِي الشّهُودِ غَلَبَتْ عَلَيْـه

وكان للشارح البوني فيها طريقة السّلف في شرح الكلم، إذ يفكك الكلم ثم يجمعه في معنى يقرب المعنى الأصلي، ويدعمه بكلام أهل الطّريقة في السّياق المشروح وبعض الأشعار، والقصص، عن سادات هذا الميدان للاعتبار، لنأخذ على ذلك مثالا قال في شرحه لقول سيدي علي عزوز:

وفِي السّرِّ مَنْ يَلْبسُ العِبَاءَة * والقَمْـــجُ حَـــرَامٌ عَـلَيْـــه

"يعني أنّ من السّر من يحمل صاحبه على لبس العباءة تتخذ من الصّوف وهي معلومة والقمج من الكتان وهي معلومة أيضا، والعباءة من لباس الأنبياء والصّالحين وزي الفقراء والمساكين ولما أهدى أبو بكر رضي الله عنه جميع ماله إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يفعل فيه ما يشاء، وأصبح أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في عباءة لا يملك غيرها فجاء الأمين جبريل ـ عليه السّلام ـ إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وهو لابس عباءة، فقال له صلّى الله عليه وسلّم: [ما بالك لابسا هذه العباءة؟ فقال: لما ألبس أبو بكر العباءة أصبحت الملائكة كلهم لابسين العباءة والمرقع والخشن ولبس الصّوف والشّعر]. وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: [البذاذة من الإيمان] أي لباس الأدون، لأنّ المؤمن نفسه عليه هينة وليس لها عنده قدر ولا بال، فكذلك ينبغي أن يكون ثوبه وطعامه ومسكنه للمناسبة في أحواله فإنّ المناسبة مطلوبة شرعا وطبعا. قال في عوارف المعارف: "ومن التّناسب في أحوال القوم أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم وطعامهم مشاكلا لكلامهم وكلامهم مشاكلا لمقامهم فمن خشن ثوبه ينبغي أن يكون مأكله من جنسه وإذا اختلف الثّوب والمأكل دل على وجود مرض في القلب يحتاج إلى دواء فإنّ الثّوب موضع نظر الخلق والمأكل موضع شهوة النّفس وكلاهما مرض يحتاج إلى دواء ليعود إلى حد المناسبة والاعتدال". لبس سليمان الدّاراني ثوبا خشنا، فقال له أحمد: "لو لبست ثوبا أجود من هذا! فقال له: قلبي في القلوب مثل قميصي في الثّياب"، وكان الفقراء يلبسون المرقعة وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثيابهم، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصّلاح. حكي أنّ جماعة من أهل المرقعات دخلوا على بشر الحافي فقال لهم: "يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزّي فإنّكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقام شاب من بينهم وقال: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف بها ويكرم لها والله لنظهرن

هذا الزّي حتى يكون الدّين كله لله فقال له بشر: أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة.."[32]الخ شرحه، وهكذا إلى أن تم جميع ما وصله من كلام الولي علي عزوز رحمه الله شرحا وتعليقا. وممّا يلاحظ من كلام قاسم البوني كثرة النّقول عن شرح ابن عباد للحكم العطائيّة[33] ولا عجب إذ كان من مقراراته الدّراسيّة لطلابه في الجامع الكبير كما سبق بيانه، كما نقل عن ابن عربي في فتوحاته، وأخذ عن صاحب لطائف المنن، ومن أهل الفقه الذين نقل عنهم خاصّة في مسألة الدّخان والضّيافة: ابن حجر العسقلاني الشّافعي في فتح الباري، وشيخه الأجهوري أبي الإرشاد والتّتائي شمس الدّين المالكيين. ومن المفردات التي يطالعنا بها المخطوط أيضا قصائد وبعض الأبيات المفردة التي تعود لأبي المؤلّف أي محمّد اسّاسي البوني كتعشيره لبردة البوصيري وهذا التّعشير في حكم المفقود، ممّا يفتح باب البحث عنه في الخزانات أو جعله كأحد تأليفات محمّد اسّاسي لمن أراد ذكر مؤلّفاته وعدها، ومن إفضال الشّرح علينا أنّه حفظ لنا بعض ما كان ينظمه صاحب المخطوط قاسم بن محمّد ممّا لا يوجد في غيره من ذلك قوله: [بحر الطّويل]

تَغَنَّوْا أَحِبَّاءَ الحَبِيبِ وَرَنَّمُوا * (فَلَذّ) مَقامٌ فِيهِ غَنَّوْا وَزَمْزَمُوا
وَصَارُوا كَوُعَّاظٍ تَرَقَّوْا مَنَابِرًا * وَبَاحُوا بِأَسْرَارِ الغَرَامِ وَأَفْهَمُوا
وَمَالتّ رِجالٌ هَزَّهَا الشّوْقُ والضّنَا * وَأَرْوَاحُهُمْ فِي عَالَمِ الغَيْبِ عُوَّمُ
(فَعَادَتُهُمْ) ذِكْرُ الحَبِيبِ وَعِطْفُهُ * وَرَاحَتُهُمْ وَجْدٌ بِهِ يَتَنَعَّمُوا
فَيَا عَاذِلِي فِيمَنْ أُحِبُّ دَعِ العَنَا * فَهَيْهَاتَ أَنْ يَسْلُوْ الأَحِبَّةَ مَغْرَمُ
فكيْفَ بُكَا عَينِي وَهُمْ بِسوَادِهَا * وَكَيْفَ عَنَا قَلْبِي وَهُمْ فِيهِ خَيَّمُوا
رَضَعْتُ لِبَانَ الحُبِّ مِنْ قَبْلِ نَشْأَتِي * وَمَنْ يَرْتَضِعْ ثَدْيَ الهُدَى كَيْفَ يُفْطَمُ[34]

وقوله كذلك ملخصا حاله من حال الشّيخ الولي سيدي علي عزوز: [بحر الطّويل]

حَكَمْتُمْ بِبُعْدٍ أَوْجَبَ الضّرَ والأَسَى * وَحَاشَ وَكَلاّ أَنْ أَقَولَ ظَلَمْتُمُ
وَأَتْلَفْتُمُ لُبِّي بِغَيْرِ مَلَامَةٍ * وَفِي شَرْعِكُمْ أَنَّ المفرِّطَ يَغْرَمُ
وَآلَيْتُمُ أَنْ تَحْفَظُوا العَهْدَ دَائِمًا * فَمَا بَالَكُمْ لمَا انْقَضَى الحَوْلُ حِلتُمُ
وأَعْرَضْتُمُ عَنْ مُذْنِبٍ شَقَّهُ الضّنَا * فَمَا ضرَّكَمْ أَنْ لَوْ مَنَنْتُمْ وَزُرْتُمُ
فَأَنْتُمْ أَحِبَّائي عَلى كُلِّ حَالَةٍ * مَقَامُكُمُ عِنْدِي عَزِيزٌ مُعَظَّمُ

فِإنْ شِئْتُمُ زُورُوا وَإِنْ شِئتـــمُ فَلا * فَلَيْـسَ لحِـــــــاَلِ تَرتَضُوهُ مُذمّمُ[35]

4 ـ الخاتمة: وختاما، يمكن أن نقول أنّ هذا المخطوط يسطع على صغر حجمه وقلّة نظمه كأثر مهم من الآثار التي خلف قاسم بن محمّد اسّاسي البوني لاسيما إن أعيد له حق التّأليف وتمت له نسبة العمل، كونه أحد الأعمال التي تعرضت لأخطاء المفهرسين في فهارس المخطوطات أو أثناء إحصاء مقدرات الخزائن، كما تظهر قيمة هذا العمل في تصوير مشهد التّصوف في الغرب الإسلامي إبان التّواجد العثماني بهذه الأرض الطّاهرة وكأحد الشّواهد الكثيرة التي قد يزاد احتفالا بها في تبيان خصوصيّة المشهد الصّوفي الطّرقي ودوره الثّقافي في الرّبط بين بلدان الغرب الإسلامي. وعلاوة على نزعته الرّوحانيّة الطّافحة عليه، فإنّه لا يخلو من لمحات أدبيّة وومضات شعريّة ونثريّة تنبئ النّاظر فيه على ما كان عليه قاسم بن محمّد البوني من تمكن في التّرسل، واستحضار للأدلة في المسائل الخلافيّة مع القدرة على التّرجيح دون الاكتفاء بالنّقل والحكاية، والاطلاع الواسع على المدونات الصّوفيّة المختلفة وما كتب في الوعظ والرّقاق والتّذكير، كما أنّه تملّك ناصيّة الأدب وانثنت له القريحة الشّعريّة ومكنّته منها، ولكي يفتح هذا المخطوط الباب واسعا للبحث في تراث هذا الرّجل الذي لا يعلم له تأليف مطبوع، وحتى المخطوط منه قد نسب لغيره رغم أنّ نسبة البيت البوني عائدة إليه[36].

الهوامش:

[1] . أبو العلاء المعري، اللزوميات، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي القاهرة، ج1، ص 32 . 34.

[2] . ينظر: الصّلحاء (مدونات في الإسلام المغاربي في القرن التّاسع عشر)، إدموند دوتي تر: محمّد ناجي بن عمر إفريقيا الشّرق المغرب، 2014م ص 21 . 22.

[3] . **ينظر:** تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1 1998م، ج1، ص 459 . 460.

[4] . من تلك المراسلات الحادثة ما نشره أبو القاسم سعد الله فيما دار بين عائلة البوني ممثلة في محمّد ساسي وحفيده أحمد الشّهاب من جهة ويوسف باشا ومحمّد بكداش من جهة أخرى، ينظر: تجارب في الأدب والرّحلة، أبو القاسم سعد الله المؤسسة الوطنيّة للكتاب الجزائر، 1983م، ص 54 إلى ص 62.

[5] . كالطّريقة البكداشيّة.

تنبيه: لا مناسبة بين هذه الطّريقة وما كان عليه باشا الجزائر محمّد بكداش السّالف الذّكر كون هذا الأخير متأخرا عن زمن تأسيسها، وهذا لا ينفي تعلق هذا الباشا بالطّرقيّة فقد كان مريدا من مريدي أحمد بن قاسم البوني وكانت بينهما مصاهرة وممادح خاصّة بفتح محمّد لوهران وطرد الإسبان منها بعد أن استعصت عليهم دهورا. ينظر: تجارب في الأدب والرّحلة، أبو القاسم سعد الله، ص 49. وتقديم سعد بوفلاقة في مبحث (حياة وآثار أحمد بن قاسم البوني) من كتاب الدّرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، أحمد بن قاسم البوني منشورات بونة للبحوث والدّراسات الجزائر، ط1، 2007م.

وقد أشار أيضا عبد الكريم الفكون في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وكذا الورثلاني في رحلته إلى كثير من تلك الرّوابط والتّحالفات التي جمعت بين العثمانيين والمتصوفة، كما خصص محمّد بن ميمون الجزائري صاحب التّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة المقامات الثّماني الأول من كتابه في التّعريف بمحمّد هذا ومناقبه وعلاقته بالتّصوف.

[6] . الدّرة المصونة، أحمد بن قاسم، ص 75.

[7] . المخطوط اللوحة 1/ ب.

[8] . الدّرة المصونة، أحمد بن قاسم، ص 55.

[9] . المصدر نفسه، ص 15.

[10] . لم أهتد لترجمته.

[11] . نقلا عن: بيوتات الأسر العلميّة بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثّقافي، فوزيّة لزغم، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، سنة 2013/ 2014 م، رسالة منشورة، ص 200.

[12] . أوردها حفناوي بعلي بهذه الصّيغة ولم أعثر لها على سند في الكتب الجغرافيّة أو حتى على قوله أنّها قبيلة فإني لم أجدها في الكتب المعتنيّة بالأنساب والقبائل، **ينظر**: الرّحلات الحجازيّة المغاربيّة: المغاربة الأعلام في البلد الحرام ـ دراسة نقديّة ـ، دار اليازوري العلميّة الأردن، 2018م ص 410.

[13] . المرجع نفسه، ص 409.

[14] . أي في كتاب الدّرة المصونة لأحمد بن قاسم البوني.

[15] . عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات، اعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1983م ج 2، 784.

[16] . **نقلا عن:** بيوتات الأسر العلميّة بالجزائر خلال العهد العثماني، فوزيّة لزغم، ص 205.

تنبيه: نقلت عن الأطروحة المذكورة ما يتعلق من نصوص الثّبت لأحمد البوني، والأصل أن أعود للكتاب غير أني عُدمته مطبوعا ومخطوطا.

[17] . عقد أحمد بن قاسم الفصل الحادي عشر كله من منظومته لتلاميذ والدّه، ينظر: الدّرة المصونة له.

[18] . المصدر نفسه، ص 77.

[19] . **نقلا عن:** بيوتات الأسر العلميّة بالجزائر خلال العهد العثماني، ص 206 . 207.

تنبيه: ربما قصد أحمد بن قاسم بالتّأليف: التّأليف المستقل في هذه العلوم من غير ذكر المثال أو مجرد الحواشي والتّعقيبات على هذه المؤلفات.

[20] . أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج2، ص 30.

[21] . فهرس مخطوطات المكتبة الوطنيّة التّونسيّة، مصلحة المخطوطات، 20 سوق العطارين تونس، 1978م، ج 4، ص 19.

[22] . الفهرس العام للمخطوطات دار الكتب الوطنيّة، إعداد: جمال بن حمادة، تونس، 1994 م، ج 8، القسم الأول، ص 191 . 192.

[23] . المخطوط اللوحة 9/ ب، كما زاد النّقل عليه مرة أخرى **ينظر**: اللوحة 30/ ب من المخطوط.

تنظر ترجمة أحمد القشاشي المدني: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهيبة، 1284 هـ، ج1 ص 343.

[24] . ورد النّقل عنه في موضعين: اللوحة 41/ ب، واللوحة 42/ أ من المخطوط.

تنظر ترجمة الأجهوري: الأعلام، خير الدّين الزّركلي، دار العلم للملايين، ط 15، 2002م ج 5، ص 13.

[25] . **نقلا عن:** بيوتات الأسر العلميّة بالجزائر في العهد العثماني، فوزيّة لزغم، ص 207.

[26] . **تنظر** ترجمته في كتاب: شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة، محمّد بن قاسم مخلوف، تخريج وتعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلميّة بيروت، ط1، 2002 م ج1، ص 469.

وكتابي محمّد بن الطّيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني، تحقيق: محمّد حاجي وأحمد التّوفيق مكتبة الطّالب الرّباط، 1986 م ج 3، 260. وكتاب: التّقاط الدّرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحاديّة والثّانيّة عشر، تحقيق: هشام العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط 1، 1983 م، ص 325.

وكتاب: الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، حسين خوجة، المطبعة الرّسميّة العربيّة بحاضرة تونس 1907 م، ص 199.

[27] . حسين خوجة، الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان، ص 202.

[28] . اللوحة 1/ ب من المخطوط.

[29] . اللوحة 2/ أ من المخطوط. وما بين القوسين كذا هي في النّسخة.

[30] . اللوحة 2/ ب من المخطوط.

[31] . اللوحة 2/ ب من المخطوط.

[32] . اللوحة 43 /ب واللوحة 44 /أ من المخطوط

[33] . وقد نقل عنه أكثر من تسع مرات كأكثر مصدر منقول عنه.

[34] . اللوحة 1/ ب واللوحة 2/ أ من المخطوط

[35] . اللوحة 2/ أ، ب من المخطوط

[36] . قال أحمد الشّهاب في درته: فـدارنا منسوبــة إليه * في كل حال عيبنا عليه

الدّرة المصونة، أحمد بن قاسم البوني، ص 76.

رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جنته آمين..